تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

مدير تحقيقات كمبيوتر سنة ١٩٩٣م

الجزء الأول

★

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة الناشر

عندما يذكر المؤرخون الاعلام العرب الذين حملوا مشعل النهضة الحديثة يجدون في مقدمة هؤلاء الاعلام باحثاً عظيماً كان له أكبر الأثر في ارساء قواعد هذه النهضة على الاسس السليمة التي يجب أن ترتكز اليها . وهذا الباحث ، المؤرخ ، والاديب الفذ هو « جرجي زيدان » ، فهو بالاضافة الى ما كان يتمتع به من موهبة أدبية جمالية وخيال خصب كان أكثر الباحثين جلدا وأقواهم صبراً على تقصي وقائع التاريخ وملاحقة دقائق حوادثه .

لقد عني جرجي زيدان عناية كبرى بالتاريخ العربي والاسلامي ، فبسط أخبار هذا التاريخ تبسيطاً فنياً ممتازاً في سلسلة من الروايات التاريخية باسم «روايات تاريخ الاسلام». وقد لاقت هذه السلسلة ولا تزال تلاقي رواجاً ممتازاً لدى قراء العربية ، لما تميزت به من أسلوب شيق ووقائع ثابتة . وكانت النافذة الامينة التي أطل منها القارىء العربي الحديث على تاريخ قومه ومزايا أبطالهم .

ولكن زيدان الباحث المفكر لم يكتف بنسخ الاخبار وعرضها مبسطة للقارىء ، بل هو أراد درسها ومناقشة أسبابها وبواعث وقائعها ، فانصرف الى كتابة « العرب قبل الإسلام » و« تاريخ التمدن الاسلامي » حيث ضمنه خمسة أجزاء . وكان اول من تعرض لهذه الدراسات التاريخية من العرب وفق المنهج العلمي الحديث . وقد لفتت دراساته نظر المستشرقين والمعنيين بشؤون الحضارة العربية الاسلامية في جميع انحاء العالم فترجمت جميع مؤلفاته فيها الى عدة لغات أجنبية ، واعتبرت مرجعاً رئيسياً من مراجع التاريخ العربي والاسلامي .

ولم يقف زيدان عند دراسة التاريخ وعرضه او محاكمة وقائعه ، بل تابع دراساته في تطور الوجدان العربي من خلال الآثار الادبية العربية ، فأصدر كتاباً في أربعة أجزاء باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » مما جعله يحق في مقدمة دارسي الادب العربي وفق الاساليب الحديثة .

ودار مكتبة الحياة ، إذ تقدم آثار جرجي زيدان في طبعتها الجديدة الخاصة بها ، فانما هي تضيفها باعتزاز الى مجموعاتها الثقافية التي اعتادت مفاجأة المكتبة العربية بها بين الحين والآخر ، فتضمها في صف واحد مع « الاغاني » و « محاضرات الادباء » و « عيون الانباء في طبقات الاطباء » و « شرح نهج البلاغة » و « معجم متن اللغة » و « الحلل السندسية » و « الضوء اللامع » والعشرات من الكتب والموسوعات الفكرية والادبية المترجمة لامثال اشبنغلر وايتهد وبرتراند رسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم .

وهكذا تواصل مؤسسة «دار مكتبة الحياة» رسالتها لخدمة الثقافة العربية المعاصرة.

الناشر

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة الطبعة الأولى

لا مشاحة في ان تاريخ الاسلام من اهم التواريخ العامة ، لانه يتضمن تاريخ العالم المتمدن في العصور الوسطى ، او هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه اشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ اعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد اعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله .

ونظراً لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم — لانه تاريخ لسانهم وامتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم — ما فتئنا نختلس الفرص لتعريبه بما يسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيىء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم ، لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعاً في « الهلال » . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصاً في بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلا بد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات افضل وسيلة لهذه الغاية .

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف اهم وقائع التاريخ الاسلامي الى مقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان[1] . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقاً الى التوسع في هذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامي . ورأينا في افاضل كتابنا تطلعاً الى البحث في هذا التمدن والنظر في علاقته بالتمدن الاوروبي الحديث . وكتب الينا غير واحد من اهل الأدب يسألوننا رأينا في ذلك ، فرأينا ان

---

١ — بلغت الحلقات التي صدرت من هذه السلسلة الى صدور هذه الطبعة ١٩ حلقة .

نجعل تتمة السنه العاشرة من الهلال كتاباً في هذا الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد مع الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجي .

وتاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها ، لا تاريخ حروبها وفتوحها ، وخصوصاً على ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام . فانهم يسردون الوقائع على علاتها ، وقلما يشيرون الى الاسباب التي تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تعليلها والنظر فيها وترسخ في ذهنه حقيقة تلك الامة . على اننا نظنهم معذورين في ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض في اسباب تلك الوقائع ، واكثرها لا ينجو الباحث فيه من انتصار لاحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذراً آخر .

اما الآن فليس هناك ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب . وقد حاول غير واحد من المستشرقين ، من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن ، فلم يجدوا في كتب القوم ما يشفي غليلاً ، لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما نشرنا في العام الماضي عن عزمنا على تأليف هذا الكتاب ، كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن .

والحق يقال اننا اعلنا هذا العزم ونحن لا نتوقع العثور على ما يزيد على صفحات تتمة السنة العاشرة من مجلة « الهلال » [illegible] صفحة ، فشمرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الادب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة .

ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات البلاذري والمسعودي وابن الاثير وابن خلكان وابى الفدا وابن خلدون وابن طباطبا والسيوطي والمقري من المؤرخين ، وابن خرداذبة والاصطخري وياقوت الحموي من الجغرافيين . ومن كتب الأدب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والكشكول والمستطرف للابشيهي وسراج الملوك للطرطوشي وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازي والزمخشري وصحيح البخاري ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها .

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابي يوسف ، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، والاحكام السلطانية للماوردي والعقد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب في موضوعات اخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده في هذا الموضوع ، وقد عثرنا فيها على فوائد جمة ، مثل حياة الحيوان للدميري

وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما. فضلاً عن المعاجم والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وكليات ابي البقاء وغيرهما وكل ذلك في اللغة العربية .

ثم طالعنا ما يستطاع الوصول اليه مما الفه الافرنج في الاسلام وتاريخه وآدابه في اللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية. مثل كتاب جستاف لوبون الفرنسي في تمدن العرب[١] وكتاب ليبو في تاريخ الدولة الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية[٢] ومقالات في المجلة الآسيوية الفرنسية[٣] وكتاب فون كريمر بالالمانية في تاريخ تمدن المشرق[٤]، وكتاب مولر الالماني في تاريخ الاسلام في الشرق والغرب[٥] وكتاب ستانلي لين بول الانجليزي في الدول الاسلامية[٦] وكتاب ادوارد جيبون الانجليزي في اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها[٧] وغيرهم .

وقد زاد عدد ما طالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مائتي مجلد ... عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والموضوعات، مع ما رسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الاعوام ، فوفقنا بعد كل ما تقدم الى ما يملأ أضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية في تاريخ ذلك التمدن العجيب من الوجوه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بدا من تقسيم الموضوع الى اجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ، ثم نصدر ما يليه من الاجزاء تتمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله .

فالجزء الاول ، وهو هذا ، أساس ما يليه من الأجزاء . وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية في العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله ، والحكومة في الجاهلية وتاريخ الكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهور هذه الدعوة ، وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاموية الاندلسية

---

١ – La Civilisation des Arabes, par le Dr Gustave Le Bon.
٢ – Hist. du Bas-Empire par Lebeau, 30 vol.
٣ – Journal Asiatique.
٤ – Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremer.
٥ – Der Islam im Morgen und Abendland, von Dr. Mueller.
٦ – The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-Poole.
٧ – Decline and Fall of the Roman Empire, by Gibbon.

فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا في كل ذلك نظر الناقد ، فلم نذكر حادثة الا اسندناها الى عللها وأسبابها وبينا ما نتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها .. وخصوصاً فيما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية (البيزنطية) مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وهو بحث فلسفي لم يستوفه أحد في لغة من اللغات على ما نعلم — الا ماقد تراه في كتب الباحثين من الافرنج وأكثره مختصر لا يروي غليلا . ولا يعابون في ذلك والموضوع بعيد عنهم ولا علاقة له بأحوالهم ولا بأديانهم ولا بآدابهم ولا بتاريخهم الا قليلا - وانما اللوم علينا نحن ابناء هذ اللسان— وقد سبقنا الافرنج الى البحث في تاريخ بلادنا وامتنا وآدابنا وأخلاقنا.

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر في المملكة الاسلامية في إبان عزها وفي احصائها . ثم في الدولة الاسلامية وادارتها وكيف نشأت وتشعبت الى الوظائف المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال، وبيت المال والجند وسائر الدواوين . ثم ذكرنا تاريخ كل من هذه الادارات والوظائف وما تفرع منها او الحق بها . وقد عانينا المشاق الكبرى في استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرأنا المجلد الضخم فلا نستفيد الا فقرة او فقرتين ، ولا تتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين او الثلاثة .

ومن امثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل اننا بعدما كتبنا تاريخ ولاية الاعمال وتاريخ القضاء في الدولة الاسلامية ، عمدنا الى البحث عن رواتب العمال ورواتب القضاة في زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا في فتوح البلدان للبلاذري ان عمر بن الخطاب « بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم ، وعبدالله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم ، وعثمان بن حنيف على مساحة الارض الخ » لكنه لم يذكر مقدار عطاء أحد منهم ، ثم وجدنا في كتاب سراج الملوك للطرطوشي في باب سيرة السلطان في الانفاق من بيت المال وسيرة العمال قوله : « ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فأجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وعبدالله بن مسعود مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود . ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منهما ان راتب من يتولى الجيوش والصلاة في عمل من الاعمال ، كان على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم في الشهر . وعلمنا من قرائن اخرى ان الذي يتولى الصلاة والجيوش في أيام عمر هو العامل. ومن قرائن أخرى ان عماراً كان عاملا لعمر على الكوفة ، فتحققنا من مجموع ما تقدم ان راتب العامل كان على عهد عمر ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم — وقس على ذلك .

وسنبحث في الجزء الثاني عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى اهلها وحضارتها وعلاقتها بالدول المعاصرة لها ، ووصف احوال الخلفاء في مجالسهم ومآبهم واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخـــول عليهم وجلوسهم للناس وقصورهم وبذخهم وركـوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية والمدن الاسلامية الخ ...

والجزء الثالث يبحث في العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالها في الشام والعراق قبل الاسلام ، وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره .

والجزء الرابـــع يبحث في الآداب الاجتماعية في تلك العصور الزاهرة على مـا يقتضيه المقام [١]

وسنختم المقـال ببيان نسبة التمدن الافرنجي الحديث الى التمدن الاسلامي ، ويكون الكلام في ذلك جليا واضحا بعد تفصيل عوامل هذا التمدن في الاجزاء السابقة [٢] .

فترى مما تقدم ان الموضوع شاق ووعر ، فضلا عن حداثته في عالم التأليف مع قصورنا في هذا الشأن . وفي ذلك تمهيد للعذر عما قد ينسب هذا الكتاب من النقص . ونتقدم الى اهل الفضل ان يؤازرونا بملاحظاتهم وآرائهم للانتفاع بها فيما سيصدر من الأجزاء التالية ان شاء الله تعالى .

١ – تبين لنا بعد التقدم في تأليف الكتاب انه لا يتم الا أن يكون خمسة اجزاء كما ترى .
٢ – عدلنا عن هذا البحث في هذا الكتاب وأجلناه الى كتاب آخر .

مقدمة الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب منذ بضع عشرة سنة ، فتناوله الادباء والعلماء بالتقريظ والانتقاد في الصحف العربية وغيرها . وجاءتنا كتب اهل العلم من اقطار العالم الاسلامي ينشطوننا ويستحثوننا . وفيهم من جاهر صريحا انه لم يكن يظن تأليف مثل هذا الكتاب ممكنا لقلة المآخذ المساعدة على ذلك . فزادنا تنشيطهم ثباتا على هذا العمل حتى ظهر الكتاب في اجزائه الخمسة .

وكان له وقع خاص عند أدباء اللغات الاخرى ، فأخذوا في نقله كله او بعضه الى السنتهم . فنقل الى أهم اللغات الشرقية ، نعني الفارسية والاوردية والتركية ، ظهر مطبوعا فيها كلها. ونقل الى أهم لغات أوربا ، نعني الانجليزية والفرنسية ، وقد ظهر جزؤه الرابع في الاولى وسيظهر جزؤه الاول في الثانية . وتضاعف الاقبال على الطبعة العربية حتى نفدت نسخ هذا الجزء منذ بضعة اعوام . ونحن نتحين الفرص لاعادة طبعه ، فلم نتمكن من ذلك الا الآن .

وما برحنا منذ صدور الطبعة الاولى ونحن نجمع ما يمر بنا من الفوائد التي يحسن ادخالها في هذا الكتاب عند اعادة طبعه . فاجتمع لدينا من ذلك شيء كثير اضفناه الى هذه الطبعة . ونظرنا فيما وصل الينا من انتقادات المنتقدين او ملاحظات الملاحظين مما نشر في الصحف أو الكتب أو جاءنا في الكتب الخصوصية . وتدبرناها كلها باخلاص وروية فأصلحنا ما صح عندنا وأغفلنا الباقي — وهو الأكثر — وانما توهم المنتقدون خطأه لانهم نظروا فيه من وجه غير الذي نظرنا منه نحن . او اننا اطلعنا عليه في مصادر لم يطلعوا عليها ، فاكتفينا في هذا الحال بذكر المصدر الذي عولنا عليه في ذيل الصفحة .

فجاءت هذه الطبعة اكبر من الاولى وأوفر مادة واحسن ترتيبا وأكثر صوراً وأشكالاً . وفي ما أضفناه اليه من الصور او الخرائط ما يزيد البحث ايضاحاً . فعسى أن يقع عملنا هذا موقع الاستحسان . وحسبنا اننا قمنا ببعض الواجب في سبيل آداب هذا اللسان .

مقدمات تمهيدية

البحث في تمدن الامة يتناول النظر فيما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من اسباب الحضارة وثمارها ، ويدخل في ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمها ، كالمدارس والمكاتب والجمعيات ، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء ، وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية . وذلك يستلزم وصف عادات الامة وآدابها الاجتماعية ومشاعرها السياسية . واسناد ذلك الى أسبابه وبواعثه .

غير ان النظر في هذا التمدن على هذه الصورة ، لا يكون واضحاً وافياً الا اذا تقدمه البحث عن حال تلك الامة في بداوتها ، وكيف تدرجت الى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك . والبحث المشار اليه ضروري خصوصاً في تاريخ التمدن الاسلامي ، لان فيه عوامل خاصة به لا وجود لها في تمدن الامم الاخرى .

وبناء على ذلك لم نر بدا من تصدير هذ الكتاب بمقدمات تمهيدية ، نبسط فيها حال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وما تقدم الدعوة الاسلامية من احوال تلك الامة . . وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة ، وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ . . وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالها الدينية في أيام الراشدين الى حالها السياسية في ايام الامويين فالعباسيين فالفاطميين فغيرهم .

فاذا فرغنا من ذلك ، عمدنا الى الكلام في سعة المملكة وتاريخ ادارتها ومناصبها وغير ذلك .

فنبدأ بوصف حال العرب قبل الاسلام .

العرب والتمدن

زعم بعض الكتاب من الافرنج ان العرب لا فضل لهم في تمدنهم الاسلامي لانهم انشأوه على انقاض التمدنين البيزنطي والفارسي . فالتمدن الاسلامي عندهم عبارة عن مزيج من ذينك التمدنين ، مع بعض التعديل . وان العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة ، لانهم لم ينشئوا تمدناً من عند انفسهم في عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية. وعندنا ان العرب أكثر الامم استعداداً للحضارة وسياسة الملك ، لا يقلون في ذلك عن سواهم من الامم التي تمدنت قديماً او حديثاً واليك البيان .

قيام العرب

المشهور عند المؤرخين ان العرب ينقسمون الى قسمين كبيرين : العرب البائدة كعاد وثمود ، والعرب الباقية . وان العرب الباقية ينقسمون الى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها ، وهم ينتسبون الى قحطان أو يقطان بن عامر وينتهي بأرفخشاد الى سام . والاسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب ، وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امرأته هاجر ، ويسمون أيضاً مضرية ومعدية لمثل هذا السبب .

وقد بينا في كتابنا « العرب قبل الاسلام » ما كان للعرب من الدول القديمة فيما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرناً.. نعني دولة حمورابي واضع اقدم الشرائع الانسانية التي وصلت الينا ، وقد اتينا من هناك بالادلة التي ترجح كون دولته عربية ، وبينا ان تلك الامة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية . وكانت للمرأة فيها منزلة وحرية ، حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية[1] وتفرع من الحمورابيين بعد ذهاب دولتهم دول العمالقة المختلفة ، ومن فروعهم عاد وثمود والانباط وعرب تدمر وغيرها .

---

١ – انظر كتاب « العرب قبل الاسلام » .

ويلي الحمورابيين عرب اليمن وهم القحطانية . وقد تمدنوا قبل العرب الاسماعيلية ، لأن بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من بلاد هؤلاء ، فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل وأشور . وقد ظهروا بعد الحمورابيين بعدة قرون ، ذكرنا منهم الدول المعينية والسبأية والحميرية ، أصحاب مأرب وصنعاء وغيرهما .

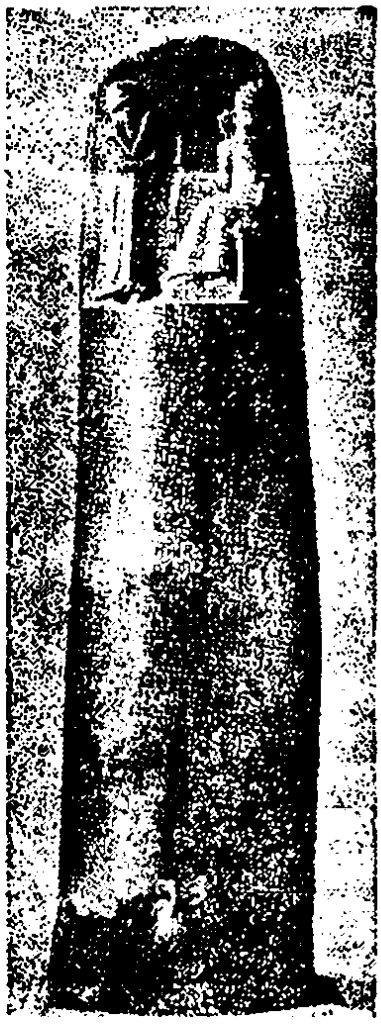

حمورابي ملك بابل واقفاً بين يدي اله الشمس

أما العرب الاسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فأكثرهم أهل بادية : وقد ظهر منهم دول قبل الميلاد وبعده ، أشهرها دول القبائل صاحبة الوقائع التي جرت بينهم قبيل الاسلام التي تعرف بأيام العرب .

ثم ان العرب ليس في أرومتهم مانع استعدادهم للحضارة ، لانهم اخوان الاشوريين والكلدانيين ، والفينيقيين ، ولهم استعدادهم وأهليتهم .. فالذين أقاموا منهم في بلاد عدل بلاد ما بين النهرين أدهشوا العالم بمدنيتهم . والمقيمون في جزيرة اكثر بقاعها جرداء لا انهر فيها ولا جداول ، وانما يستقون من مياه المطر ، قضوا قروناً في البداوة .. فلما أتيحت لهم الاقامة في البلاد الخصبة بعد الاسلام ، لم يكن تمدنهم فيها يقصر عن تمدن اولئك .

فالتمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة . فقد كان المعينيون والسبأيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة في ذلك الحين . فكانت تجارات الهند تحمل في البحر الهندي الى بلاد اليمن وحضرموت ، فيحملها أهل اليمن الى الحبشة ومصر وفينيقية وبلاد الادوميين والعمالقة وبلاد مدين وبلاد المغرب . وكذلك كان الاسماعيليون ينقلون التجارة من اليمن وموانيء بحر العرب الى بلاد الشام .

وساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة — فضلا عن توسط بلادهم — انهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات اكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين. لان اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظاً ومعنى . فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من اللغة الفصحى الآن . فكان العربي من حمير او مضر اذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني او الاشوري الى ترجمان . وكذلك اذا يمم فينيقية او

زنوبيا (الزباء) ملكة تدمر

الحبشة فانه يفهم لسان اهلها كما يفهم الشامي لسان اهل مصر اليوم . ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزح من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط اهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم الى مترجم . وكذلك بنو اسرائيل في تيههم حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم قضوا اربعين سنة في اعالي جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين اهلها .

والمسافر في بلاد العرب اليوم يجد اكثرها رمالاً قاحلة ، لكنه لو نقب تحت تلك الرمال في بعض المواضع ، لوقف على آثار القصور وغيرها من بقايا المدنية . روى مؤرخو

العرب البائدة عما خلفه العاديون من الابنية الفخمة هناك مـا نعده من الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التي زعموا « ان شداد بن عاد بناها في الاحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة . فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاها بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وبنى داخل المدينة مائة الف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت ، طول كل عمود مائة ذراع ، واجرى في وسطها انهاراً وعمل فيها جداول الى تلك القصور ، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الامكان . لكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها ، فانهـا تدل على ان بعض ابنية العرب البائدة كانت مرصعة في بعض جدرانها او اساطينها بالحجارة الكريمة ، وهذا غاية ما يمكن ان يصل اليه البذخ والترف . ولا يكون ذلك الا في ابان المدنية .

عرب اليمن

اما عرب اليمن القحطانية ، فقد تمدنوا تمدناً لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمـال في حضرموت ومهرة واليمن . واشهر دولهم عند العرب حمير وسبأ وكهلان . وتاريخ هذه الدول اقرب عهداً من عاد وثمود ، وقد اكتشف البحاثون بعض آثارهم ، واكثر ما اكتشفوه انقـاض بعض الابنية في صنعاء وعدن وحضرموت . فاستخرجوا منها الواحاً مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) اكثرها دعاء ديني او نحوه . ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول اليهـا . ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب عن ابهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام . لكن اخبارهـا كانت الى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الاشوريين والمصريين والفينيقيين . فقد انشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة واتقنوا الزراعة . وقد

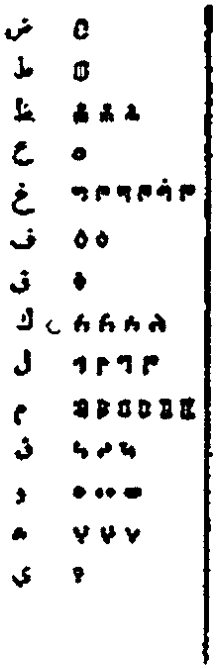

الحروف الحميرية (المسند)
وما يقابلها في العربية

ذكرهم هيرودوتس الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال : « ان في أجنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن » وعدها من اغنى ممالك العالم في زمانه .

ومن آثار العرب في اليمن ، ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الابنية ، نعني بذلك السد المشهور بسد مأرب ، بنوه نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد علي (باشا) القناطر الخيرية في راس الدلتا ، وكما بنت الحكومة المصرية خزان اسوان .

سد مأرب

وسد مأرب هذا ، عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما ، فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . جعلوا فيه شعبا واقنية وساقوا اليه سبعين وادياً تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة في الهندسة وهمة عالية ، وهو اقدم خزان للماء ذكره التاريخ ، وعرب اليمن اسبق الامم الى هذه الهندسة . وكان بناؤه متيناً صبر على صدمات الماء وتأثير الهواء بضعة قرون . ولما ضعفت الدولة عن تجديده واحسوا بقرب تهدمه اخذوا في الهجرة من حوزاه ، في اواسط القرن الثاني للميلاد ، وتفرقوا في البلاد . والمشهور عند العرب ان الغساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق ، والأوس في المدينة ، والازد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم (اي من عرب الجنوب) . ثم انفجر السد وطغت المياه فهاجر من بقي . وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم .

وذكر استرابون الرحالة اليوناني في القرن الاول قبل الميلاد ، ان مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة ، سقوف ابنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة . وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ماذكره العرب عن ارم ذات العماد .

وفي اعتقادنا انهم لو بحثوا في انقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على احافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادي النيل عن تاريخ الفراعنة ، وكما كشفت آثار وادي الفرات عن اخبار ملوك اشور وبابل . ولا يتأتى ذلك الا بارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب .

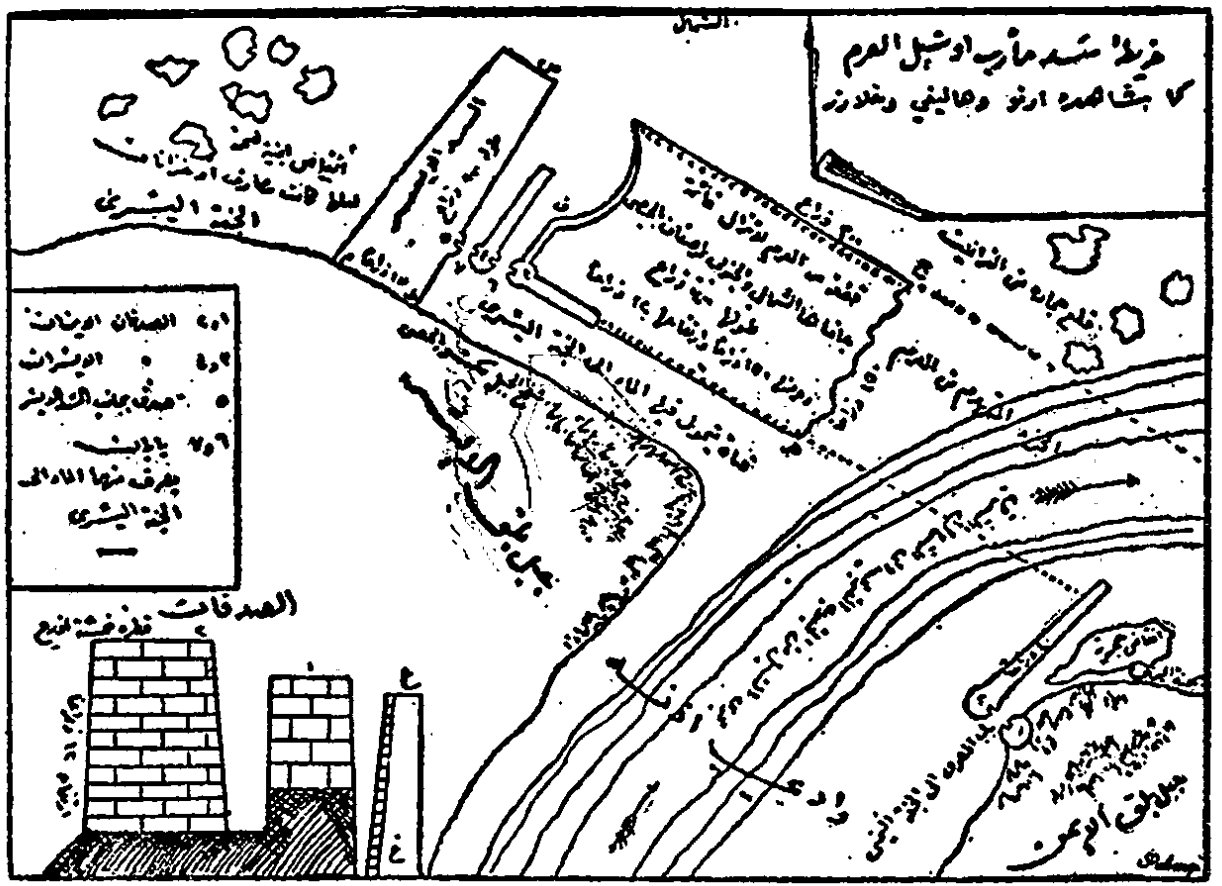
خريطة سد مأرب أو سيل العرم
كما يشاهد الآن وما يليه وتقدر
الشمال
الجنة اليسرى
الصدفات
جبل بلق الأدهم